الزمن البخيل

بقلم : عبد الرحمن أبو عوف

المنيرة ترقد فى منتصف الليل ..

هذا الحى الصغير الهادىء المنزوى خلف حى السيدة زينب العتيد والرابض بجوار شارع القصر العينى الهائل ومبنى المستشفى الضخم الملحق ومبانى كليات الطب والصيدلة القديمة السفراء الباهتة ، عربات الاسعاف تحوم دوما فى صحن الميدان الصغير المعتم ، أشباح تتكوم فى الأركان الرطبة وأصوات عويل وبكاء منكسر وانتظار طويل مؤلم معد للموتى ، غرباء اتوا من بعيد ليموتوا فى المدينة الكبيرة .

حى اصفر محاصر بالمرضى متلفع بالحزن تظلله سحب قاتمة كئيبة دائما وتتكثف التعاسة فى شوارعه الضيقة حتى عند افترائه من ميدان رين العابدين المزدحم الساهر أبدا يصطدم بمبنى مستشفى ابو الريش للاطفال قائمة فى عبوس المرضى هنا صغار هزال يطلون من نوافذ المبنى كأنها جروح دامية فى وجه هائل ... حياة تعرض فى مكبورتها وتحتق ابتسامة الطفل .

هذه الصور المركبة المتداخلة من الحياة وهى تتلاشى وتضعف وتذوب وتعرض كانت تكشف لدى رأفت احساسا غامرا بالحزن والملل والتشاؤم . وما أكثر ما تساءل بينه وبين نفسه لماذا اختار ابوه هذا الحى للاقامة به .

عام ١٩٤٢ عندما اشترى هذا البيت القديم ذا الطابقين بأفراحه الخشبية الحمراء تتوسطهما قبتان صغيرتان معلقتان فى جبهته وبوابته الشامخة تنطق شواهد كثيرة ان هذا البيت شهد أياما من العز فشارع اسماعيل سرى بمنازله ذات الطراز المعمارى التركى المحاطة بحدائق مهملة الآن كل هذا كان يوحى بعراقة العائلات القديمة التى كانت تقيم فيها غير ان المبانى الحديثة اخذت تزحف الى الشارع هذه السنين الأخيرة واكثر من بيت من هذه البيوت القديمة قد اخلى مكانه للمبانى المتشابهة فى طرازها الباردة فى الاحساس الذى تمنحه للانسان ، ولم يبق سوى بيتهم وعدد قليل آخر من البيوت محافظين على وقارهم العتيد كرجال ترتدى

الطرابيش وسط مجموعة من الشباب بقمصانهم وسواعدهم المكشوفة .

هدأت الصحة الآن فى الطريق واستسلمت المدينة للصمت الهائل واحتواها ليل الشتاء الطويل فى عباءته السوداء المسحورة وبدا الوجود وكأنه يغيب عن وعيه مستسلما للأحلام وبين الحين والحين يتمزق الصمت عن صوت مرور حلوان وهو يمزق مخترقا قلب المدينة .

ورأفت يعرف طريقه الى مشمشه كالعادة دائما عندما يعود متأخرا الى البيت الصامت تشابكت أحاسيس الملل والرتابة مصاحبة لغريزة الجوع الى دفعه الى المائدة يتناول شيئا من الطعام وعيناه تدوران فى أرجاء الشقة الكبيرة العالمة فى الظل والهدوء المريب فالوالدين

قد آوى كل منهما الى حجرته ربما من ساعات .

هو الوحيد الساهر حتى هذه اللحظة من الليل .

الوحدة الباردة تحاصره وهموم شتى تعمره ويبدو أن ثمة نهاية تقترب فى بطء مميت .

وعالم الأصوات والخلافات والصحيح والمناقشات والاشتباكات المحمسة بين الاخوة والحياة المشتركة فى الأكل والنوم والمذاكرة . أين كل هذا الدفء .... خلا البيت الآن من الاخوة . كل قد كبر وتزوج وغادره الا رأفت .

ومضى مع مشمشه طعم التعاسة .

صحة والده بدأت تتدهور هذا الشتاء تدهورا مثيرا للقلق ولا يستطيع ان يمنع نفسه من التحديق فى اليوم الرهيب الذى يبدو انه يقترب فى هرولة وقسوة .

وفى الفراغ الممتد امامه يحوم دوما سؤال قاتل مسموم . ماذا لو مات ؟؟

كل شىء يذبل ويسقط ويتشحب امامه ، ويتوه بعيدا بعيدا عن منطقة الادراك . ودفع بالأطباق . وقبض على كوب الشاى الدافىء ودلف الى حجرته يلود بساعات الصمو النادرة من يوم له نفس اللون المشمشى الباهت لأيامه التى بدأت يوم مين فى هذه المؤسسة محاسبا .

تلك الساعات الطويلة الممددة كالمرمى الصائمة منه بين جدران ادارة التخطيط والاستيراد معكفا على مكتبه وامامه الآلة الحاسبة المعقدة مدفون بين الأرقام والملفات .

ويجد نفسه يوما بعد يوم بلا شعور يذهب فى جزء من كل يتحرك على ايقاع واحد متشابه ... جزء من طابور جماعى منتظم رتيب يقف أمام الساعة ينتظر حضوره وانصرافه اربعمائة مرات فى اليوم .

وابتسم وجه الأسمر الوسيم وهو يتأمل حجرته الداخلة الحبيبة اليه ، السرير المتوسط ودولاب الكتب القائم اللون الشامخ فى ركنى الحجرة والمكتب العتيد مطوع بذكريات دافئة لسنوات من العمر انقضت فى صبر وصمت فوقه والكتب حشوله فى كل مكان واكداس المجلات واوراق الصحف القديمة ... الصفحات الأخيرة من جريدة اللواء والجريدة وأعداد الكتاب المصرى ومختلف اللاحق الأدبية للصحف التى صدرت ربما قبل ان يعرف القراءة هذه الأشياء العالية الأثيرة لديه الباقية مما تركه اخوته الكبار قبل ان يتزوجوا ويغادروا البيت الكبير وخطت اقدامه على السجادة العجمى العريقة المبسوطة على أرض الحجرة .

وصورة الأب فى شبابه تطل عليه فى كبرياء وحب عبر السودانيين الجميلتين وانفه الدقيق وشاربه الأنيق .

أين كل هذا التناسق الجميل الذى يشع حبا لبداية الحياة من الغصون التى بدأت ترهف الى وجهه وشعر بدبيب اليأس يرهف الى قلبه .

ما يخفف من لوعة القلب الحزين ويجلب العزاء اليه هذه الرحلة المتوحدة التى تبدأ مع منتصف الليل وتستمر ساعات يحوك خلالها كتبه متنقلا بين عصور جميلة للعقل والفن .

هوميروس ودانتى وتولستوى وجوركى وتحت محفوظ ... اصدقاء هذه الساعات من العمر .. عندما يذهب الى عالمهم المسحور تسقط عنه شيئا هذه التراكمات والقشور العربية التى صاحبت سنوات العمل فى المؤسسة هذه الحالة العربية التى بدأ يشعر بها عندما سلك فى عداد الموظفين ، وبدأت تستغرقه رويدا رويدا هموم العمل والنفوس المريضة المعقدة لنماذج عديدة تعرف عليها فى هذا المحيط وأيضا هؤلاء الشباب المتفتح الطيب المقبل على حياة العمل الجديدة بلا شىء موتور مرتب يحرمهم دائما مثله الى الماضى .

فى هذه اللحظات دائما يعود رأفت القديم بأحلامه المجهدة وتعود اليه الأيام الجميلة ... ايامه المسروقة منه ... ساعات القراءة التى لا تنتهى والمناقشات المصاحبة والاجتماعات الملتهبة بالحماس ... عام ١٩٥٦ ولجان المقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثى . والقاهرة تموج بالجماهير الغاضبة الهادرة وصوت عبد الناصر الغاضب يطل فى الأزهر ويتسلل الى المنادر المزدحمة والشوارع والحوارى والبيوت والقلوب لن نستسلم ... وامواج السخط والغضب تحاصر كل مكان تحول فيه رأفت ومدرجات كلية التجارة والطلبة تتجمع فى حلقات صغيرة ودوامات من المناقشات الحادة الملتهبة وما تلبث هذه الحلقات أن تتسع وتتسع لتتحول الى

محيط كبير يهدر فى صوت واحد .. كان يجب أن نرحف الى بور سعيد بور سعيد الثغر الباسم فى حزن ووقار والصوت المتسامقة واوديته والشوارع المستقيمة لها رائحة البحر وأهالى الثغر المدافعين فى رشاقه وأجسادهم الرقيقة وملامحهم الحسنة ... غير انهم مصبوغون حادى المزاج والقتال مضىء فى الليل الرهيب العين السحرية من خلالها تطل بلاده على العالم هذه البلدة الشابة المفموحة بوجدانه دائما غير أنه توقف كثيرا عند هذا السيل من الخواطر الذى اغرقه فى هذه اللحظة من الليل .

ثم ماذا حملك بعد الى هذه الأيام ؟!

صحيح أن رأفت بدأ يضيق بهذه الحياة الجديدة التى يعيشها كموظف منظم الوقت غير انه شعر عندما اسبلت ذكرياته الى بور سعيد وايامها الملتهبة ان لهذا علاقة ذات ظلال بالرسالة الجديدة التى بدأت تعمل معه مسلسل شهور ..

هى أيضا من بور سعيد ... عرف ذلك فى البداية من لكنتها المميزة وملامحها الحادة .

هو يعرف جيدا هؤلاء البنات .. بنات بورسعيد ، السمرة الدافئة والشعور السوداء الغزيرة والاعتزاز المطلق فيه والخجل الساحر .

وصحيح ايضا أنها منذ ان عملت معه وفى نفس الحجرة بدأ يشعر بها وبرقتها ونمة تغيرات سريعة فى عواطفه نحوها ربما لم يهتم فى البداية .. غير ان الاشتباكات اليومية وعلاقات العمل الصغيرة تنسج ثمة علاقة لها طعم خاص ومذاق حلو .. ربما هى أيضا تشعر بذلك فهو يعرف معنى هذه النظرات الطويلة العميقة المتسائلة ، وهذا التودد الخجيب من ناحيتها وهذا الاهتمام الذى ينمو يوما بعد يوم من جانبها به .

هل آن للقلب النائم منذ شتاء يبعد عامين أن يخفق من جديد ..

رأفت قد احب يوما وكانت أيضا لها هيمان سوداوان وشعر أسود كالليل ..

وكان ذلك فى سنوات الدراسة واحلام مقتبل العمر ، ان يصطاد النجوم أن يعمل شيئا ضخما .

ما هو ؟ الغريب انه كان يعرفه . ولا يدريه ... وعندما لا يدرى صاحب الحلم فهل تدرى رفيقه ... لقد انجذبت اليه فى البداية ثم ما أسرع ما تعبت من احلامه وتفكيره الدائم فى الماضى وحديثه المشغول المهموم بلاده وبين تردده واحلامه المبهمة وسنوات الدراسة غير المستقرة .. ضاعت منه سرقتها الأيام البخيلة كما أوشكت أن تسرق ماله الآن من بقايا أحلام قليلة ووصل به الرمق الى هذا العمل الذى يمارسه بشعور متكرر .

غير ان رأفت عندما يرحف كل صباح من الجموع الهادرة ويرتب حركة الناس المائجة والزحام المزدحم والأتوبيس المتلىء والحافلات الصغيرة يشعر بجديد يولد فى بلاده وحياة مملوءة بالأحلام الصلبة تنساب فى الشوارع .. الهائلة .

وعندما يحدث زميلته فى العمل عن

نور سعيد وكيف شهرتها الحرب عام ١٩٥٦ ومبانيها الجديدة وتقول له بصوتها الرقيق ولكنتها المميزة .

لم يعد هناك حى افرنج وعرب ولا شواطىء افرنج وعرب ... كل الشواطىء اصبحت واحدة يغسلها البحر ، عندما تقول هذه الكلمات يشعر بطعما لشىء يغسل روحه هو ايضا شىء مثير يوقظه من الماضى الذى بدأ يتمسك به ... وتكثف الصمت حوله ... صمت هائل ضخم يملأ الحجرة ودخان كثير يحلق حول مصباح المكتب وعيناه تدمع منه واستسلم فى اغراء للصمت والذكريات ورميلة العمل واحاديثها البسيطة عن نور سعيد .

واستيقظ شيئا فشيئا على دبيب اقدام والده تعبر الصالة ... ثم اقترب الوجه الحبيب المتعب من فتحة الباب يطمئن عليه .

هل نام وترك المصباح مضاء كعادته كل مساء .

ما زلت يا رأفت صغيرا ... انوك يطمئن عليك .

غير ان ثمة طمأنينة تنساب فى داخله وصباحة العينين السوداوين لا تفارق ذهنه حتى عندما شرع يمسك القلم ليخط أحداث اليوم كعادته فى مفكرته الزرقاء .

كان يشعر بالقلم يهتز فى يده وبأنه يوشك أن يتخذ قرارا فى حياته ودار حديثه فى حجرته وكأنه يهمس فى داخل نفسه عن شىء يتراجع به عن قراره الحاسم ، غير ان كل الأشياء فى الحجرة متجهمة تنسب الى الماضى ... فهل يولد جديد فى حياته ... وهل يستقبل الشمس الدافئة عندما تقبل من الوجه الأسمر والعينين السوداوين عندما يذهب فى الصباح الى العمل .

ويستقبل زميلته من نور سعيد ويقول لها كلمة صغيرة لا شك تنتظرها فى ظمأ ، كلمة ربما تعيد اليه الدفء والانسجام وتجعله يعانق الحاضر ويفلت من قبضة الماضى العالم فى الظل ... صوت مترو حلوان يمزق الصمت من بعيد والوالد عاد الى حجرته وهو قد آن له ان يأوى الى فراشه وعندما اظلمت حجرته غرق فى ضوء ينبع من داخله ضوء ربما يأتى من بعيد كاشفا كل حياته الماضية .

وتنساب خواطره فى سرعة مجنونة وتتشابك آلاف الصور العديدة فى حياته غير ان ثمة لحظة هائلة مذهلة يحتلوها ، لحظة يشعر فيها انه على وشك ان يتحدد ، أن يولد مع ميلاد الغد فى الصباح .